نونية أبي تمام في رثاء ولده

لأستاذ جليل

للدكتور محمد صبري أن يرى في مقالته « الحكم على الشعر وأساليب النقد والتحليل » في الرسالة الغراء (٥٦١) أن نونية أبي تمام في رثاء ولده[1] قد فاتت رائيته في محمد بن حميد الطوسي التي يقول فيها :

فتى كان عذب الروح لا من غضاضة
ولكن كبرا أن يقال به كبر

والأستاذ عبد الرحمن شكري أن يستعجب في إحدى مقالاته في الرسالة كيف أن حبيباً — وهو في الرثاء ما هو — لم يجد في النونية إجادة ابن الرومي في الدالية التي رثى بها ولده . غير أن تلك القصيدة فائقة كانت أو مقاربة[2] ليست لأبي تمام وإن جاءت في ديوانه المطبوع وفي المخطوط في دار الكتب المصرية (عمّرها الله) ؛ فإن أبا بكر الصولي يقول في مصنفه (كتاب الأوراق) في سيرة (أبي محمد القاسم بن يوسف) : « وقال — يعني القاسم هذا — يرثي ابنه أبا علي محمداً » وأورد القصيدة بتمامها ، وروى بعدها دالية للقاسم في رثاء ابنه محمد وبين آخرين له تجانسها كل التجانسة . والصولي هو المشغوف بحبيب . وهو صاحب أخباره وجامع أشعاره فيستبعد أن يأخذ منه ليعطي غيره كما يستبعد أن يضل في الرواية ، وهو الراوية العظيم . وما حدثتنا (أخبار أبي تمام) له ولا (هبة الأيام) للبديعي ولا مؤلفات كتبت سيرة حبيب أن له ابناً ، كنيته أبو علي ، فجع به فرثاه بشيء ، ولا أن له ابنا اسمه محمد درج وأخوة[3] لأبي تمام في عام واحد فبكاهم بمقطوعة (أربعة أبيات فقط) ختامها :

تتابع في عام بَنِيَّ وإخوتي
فأصبحت إن لم يخلف الله مفرداً

ولا نعرف لحبيب ولداً إلا « تماما » ذكره الأنباري في « نزهة الألباء » في سيرة أبيه ، والصولي في كتابه « أخبار أبي تمام »

وأورد له هذه الحكاية : « لما ولي محمد بن طاهر خراسان دخل الناس لتهنئته ، فكان فيهم تمام بن أبي تمام الطائي فأنشده (وروى الصولي ثلاثة أبيات ركيكات) فاستضعفت الجماعة شعره ، وقالوا : يا بعد ما بينه وبين أبيه ! فقال محمد لعبد الله ابن اسحاق ، وكان يعرفه الناس وهو على أمره : قل لبعض شعرائنا أجبه ، فغمز رجلاً في المجلس ، فأقبل على تمام فقال وروي ثلاثة أبيات ثالثها :

فهاك إن شئت بها مدحة مثل الذي أعطيت أعطاكا

فقال تمام : أعز الله الأمير ! إن الشعر بالشعر رباء ؛ فاجعل بينهما رضخاً من دراهم حتى يحل لي ولك . فضحك محمد وقال : إن لم يكن معه شعر أبيه فمعه ظرف أبيه . أعطوه ثلاثة آلاف درهم . فقال عبد الله بن إسحاق : ولقول أبيه في الأمير عبد الله ابن طاهر :

أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا فقلت: كلا ولكن مطلع الجود

ثلاثة آلاف أخرى ، قال : ويعطى ذلك »

وأما صاحب النونية التي وهبها الوراقون أو غير الوراقين لغنيّ ، عنده قناطير — هو القاسم بن يوسف بن القاسم بن صبيح القبطي ، وهو أخو أحمد بن يوسف وزير المأمون . قال الصولي : « لما ولي أخاه القاسم خراج السواد ، فجباه فضلاً مما جباه غيره في سائر أيام المأمون ، وكان أحمد بن يوسف إذا عرض على المأمون النفقات قال : يا أحمد ، القاسم يجمع ، ونحن نفرق... »

وقد اشتهر القاسم بمدح البهائم (أعني الحيوانات) ومراثيها . قال المرزباني في (معجم الشعراء) : القاسم شاعر ، حسن الافتنان في القول ، وهو أشعر من أخيه احمد وأكثر شعراً ، وهو أرثى الناس للبهائم

وقال أبو الفرج في الأغاني في أخبار أخيه احمد : شاعر مليح الشعر ، وكان قد جمل وكده في مدح البهائم ومراثيها ، فاستغرق أكثر شعره

وقال الصولي في كتاب الأوراق : القاسم أسن من أحمد ، وأحسن شعراً منه ، وأفصح في شعره ، وأشعر في فنه الذي أعجبه من مراثي البهائم — من جميع المحدثين حتى إنه لرأس فيه ، متقدم جميع من نحاه ، وما ينبغي أن يسقط شيء من شعره ، لأنه كله مختار ، وللناس فيه فائدة » ثم روى له طائفة كبيرة من مراثيه في الجماعة ...

* * *

(١) مطلعها :
كان الذي خفت أن يكونا إنا إلى الله راجعونا

(٢) شيء مقارب : وسط

(٣) كان لحبيب أخ اسمه سهم ، ذكره البديعي في (هبة الأيام) وكان قصده في « سر من رأى » المدينة ، ثم عاد إلى دمشق